

THE MYTH OF ARAB PIRACY IN THE GULF

MUHAMMAD AL-QASBI BSc., PhD

99

FRANK & ARTHUR
London • Sydney • Bonn, New Singapore

أسطورة القرصنة العربية في الخليج

عرض الأستاذ عبدالله بن حمد الحجيل



خلال حضوري مؤتمر اتحاد المؤرخين العرب الذي عقد مؤخراً في أبو ظبي، تحت رعاية سمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة، نظم الجمع الثقافي زيارات للمشاركين، يشاهدون أثناءها بعض الأماكن، والمعالم، ويقومون بزيارات لبعض الشخصيات الهامة في دولة الإمارات.

فما أثناء ذلك بمشاهدة بعض المناطق، والأماكن، والآثار، والمعالم الحضارية، وقولنا من أهلها بكل مودة، وحفاوة، وترحاب، أحسنا أننا بين أهلنا، وأشقائنا الذين جمعنا وإياهم أواصر الدين، والتاريخ، والدم، الذي ينض في العروق، مما زاد الشوق إلى امتداد زمن الإقامة، حتى نرداد إحاطة بما في تلك البلاد من معالم حضارية، وكما قال الشاعر:

بلاد بها ما يملأ العين بهجة
ويسلى عن الأوطان كل غريب

ومن الشخصيات التي قمنا بزيارتها سمو حاكم الشارقة، الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، الذي تفضل بإهدائي نسخة من أطروحته العلمية التي حصل بها على درجة الدكتوراه من جامعة أكسبرا، بإنجلترا وطبعت باللغة الإنجليزية عام ١٩٨٦م وتتكون من ٢٣٣ صفحة من الحجم المتوسط. وأستطيع القول بأن تاريخ الخليج، هذا الجزء العربي العريق بأصاته، وحضارته لم يلق من الحجم الوسط.

وأسرة القواسم ذات تاريخ بارز في الخليج ، وكانوا من مناصري الدعوة السلفية منذ ظهورها ، وكانت سفنهم في الخليج تمثل جزءاً هاماً لأسطول الدولة السعودية - الأولى والثانية - الذي كان كثيراً ما يتصدى لخصوم الدعوة، في رأي كثير من المؤرخين . ومن خلال مطالعتي لهذه الأطروحة، أدركت أننا بحاجة إلى المزيد من الدراسات التاريخية المنهجية، في تاريخ هذه المنطقة، إذ أن مثل هذه الدراسات تسهم بشكل واضح في كشف نواح تاريخية مهمة، وتزج السار عن حقائق مدفونة، وغير معروفة تاريخياً. وأستطيع القول بأن تاريخ الخليج، هذا الجزء العربي العريق بأصالة، وحضارته، لم يلق ما يستحقه من دراسات المؤرخين، والباحثين، والمفكرين، رغم أهميته في الحاضر وامتداد تلك الأهمية إلى الأعماق السحيقة من عمر الزمن.

أخطاء، تكاد تكون بديهية كأسماء الأعلام، والأماكن، والبلدان، وعدم مقدرتهم على ضبطها، مما يؤدي إلى اضطراب وخلل فيما بيني على ذلك من معلومات.

ولذا نيب بمغفيتها، ومؤرخينا، ومؤسساتنا العلمية أن يأخذوا المسئولية على عاتقهم في إعادة كتابة تاريخ بلادنا، وتمحيصه من الدخيل، والأخطاء، والاهتمام بنشر التراث .. والسير بخطى وطيدة، ورصينة في هذا الاتجاه.. ولعل ما يملأ النفس غبطة، أن كتاب «أسطورة القرصة العربية في الخليج» يسير في هذا الاتجاه .. لذا يعتبر أحد روافد المعرفة التاريخية، التي تصحح مسيرة الأفكار المتحيزة إلى وجهتها الصحيحة..

وتعالوا بنا نستعرض مضمون الكتاب..

ولقد اتبعت في وقت ما، عدد من المستشرقين، والرحالة، لكتابة ذلك التاريخ ونظراً لعدم قدرتهم على فهم لغتنا الفصحى، وعدم استيعابهم للهجاتنا المحلية، ومدلولاتها، وكذا عاداتنا، وتقاليدها، وغير ذلك من أمور .. جعلتهم يقعون في أخطاء - إما سهواً، أو عمداً - بل إن كثيراً منهم كانوا يتحيزون في أحكامهم، وآرائهم .. وتحليلهم لتلك الأحداث التي يتعرضون لها بالدراسة .. وتصدر تلك الآراء في كتب تتحدث عن تاريخنا .. والعجب أن الكثيرين منا كان يعتمد على تلك الكتب كمراجع ومصادر يستقي منها ما يود الوصول إليه من معلومات .. وبذلك انتشرت تلك الأخطاء، وأصبحت كأنها حقائق مسلمة .. وكان الأحرى بمن يعتمدون على هؤلاء، أن يعرفوا منذ الوهلة الأولى، وقوع هؤلاء في

٧ - شركة الهند الشرقية (١٧٨٤ / ١٨٣٤)

عام ١٩٤٠.

٨ - تاريخ الاقتصاد الهندي / كامبروج.

٩ - سادة الشرق: شركة الهند الشرقية

وأسطولها.

ويوجد صورة لعدد من اللوحات الزيتية

الملونة تصور اجتياح رأس الحيمة والقواسم.

لقد كان الانجليز هم القوة المسيطرة في

الخليج العربي في أواخر القرن الثامن عشر

وبداية التاسع عشر .. وقد جرى الرأي في تبرير

التوسع البريطاني في منطقة الخليج على أنه كان

ضرورة حتمية لقمع القرصنة العربية..

وهذا الكتاب يفند هذا الزعم، ويتصدى

لأسطورة تلك القرصنة، ويؤكد بالأدلة أن

خطر القرصنة كان صورة خلقها شركة الهند

الشرقية لأسباب تجارية بحتة .. فقد كانت

الشركة عازمة على زيادة نصيبها في تجارة

الخليج مع الهند على حساب التجار العرب في

المنطقة، خاصة القواسم في مدخل الخليج .. ولم

يكن لرئاسة الشركة في بومباي سفن حربية

كافية لحزمة أسطول القواسم .. ولذا لجأت إلى

إقناع الحكومة البريطانية بتكليف الأسطول

البريطاني بتحقيق تلك السيطرة..

ومن هذا المنطلق تولت شركة الهند الشرقية

تنظيم حملة لتصوير القواسم .. زوراً، على أنهم

قراصنة يهددون كل النشاط البحري شمال

يحتوي فهرس المحتويات على ما يلي:

١ - الخليج العربي في القرن الثامن عشر..

٢ - اتهامات، القرصنة ١٧٩٧ - ١٨٠٦.

٣ - الهجوم على رأس الحيمة عام ١٨٠٩.

٤ - المفاوضات والمعاهدة عام ١٨١٤.

٥ - تدمير القواسم عام ١٨١٩..

ثانياً : المصادر:

وثائقه:

- أرشيف الدولة في هولندا.

- أرشيف بومباي/ الهند.

- مكتبة وزارة الهند.

- الأرشيف الوطني للهند.

- مركز البحوث والوثائق / أبو ظبي (وثائق

بالفرنسية).

- مجموعة وثائق بريطانية أصلية خاصة.

- وثائق منشورة (بلغات مختلفة).

ثالثاً: دراسات (كتب منشورة بالإنجليزية):

١ - قرصنة ساحل عمان عام ١٩٦٦.

٢ - ساحل القرصنة عام ١٩٦٦.

٣ - إمارات الساحل المتهاون عام ١٩٧٠.

٤ - بريطانيا والخليج (١٧٩٥ / ١٨٨٠)

عام ١٩٦٨.

٥ - العراق الحديث في أربعة قرون عام

١٩٢٥.

٦ - تاريخ بحرية الهند.

في الهند، عقب رحلة قام بها اللورد للخليج عام ١٩٠٣م.. وكان الهدف الأساسي منه هو أن يكون هناك، تحت يد مندوبي بريطانيا وواضعي سياستها في كل من الخليج والهند ولندن، كتاب يمكن تداوله عن البلاد والمصالح البريطانية التي سوف يتعاملون معها.. وكان لا بد من توافر أسانيد وثائقية تدعم النفوذ البريطاني في المنطقة ونبر وجوده وتوسعه في وقت بلغ فيه التوتر الدولي مداه وتصارعت أطماع القوى الاستعمارية الكبرى على خيرات الشعوب..

كان من المستبعد أن يلتزم لوريمر، الموظف البريطاني في حكومة الهند البريطانية، بالحياة والموضوعية، في دراسته لسياسة بلاده وفي رواياته.. نفعاً عن وثائق بريطانية سابقة - التي تضمنها الجزء التاريخي من الدليل.

لقد وضعت الحكومة البريطانية في الهند تحت تصرف لوريمر كما هائلاً من الوثائق التي تستخدم موضوعه لكن منهجه كان إنتقائياً إلى أقصى حد، وبالشكل الذي يخدم هدفه، فاستطاع بذلك نسج أكاذيب وشائعات على أنها حقائق لا تقبل الشك..

وقد أدت ترجمة هذا المؤلف الكبير إلى اللغة العربية إلى رواج وجهة النظر الاستعمارية البريطانية في موضوعات يتصدى لأحدها اليوم سمو أمير الشارقة الدكتور سلطان القاسمي وهو

المحيط الهندي والمياه المجاورة له.. وصار كل حادث يقع لأية سفينة في المنطقة يؤول على أنه هجوم من قراصنة القواسم..

وقد أدت هذه الحملة في النهاية إلى اجتياح رأس الخيمة وتدمير القواسم..

ومن واقع دراسة مكثفة ودقيقة لأرشيف بومباي البريطاني لم يسبق لباحث الاطلاع عليه جاء هذا الكتاب ليقدم صورة جديدة تماماً عن فترة هامة في حياة الخليج... وهو أيضاً يلقي الضوء على أسلوب شركة الهند الشرقية وطريقتها في فترة دقيقة من توسع الإمبراطورية البريطانية..

ولقد قام جون جوردون لوريمر منذ ثلاثة أرباع القرن تقريباً بتأليف موسوعته الكبرى عن الخليج الذي عربه قسم الترجمة في مكتب أمير قطر، وطبع باسم «دليل الخليج» في قسمين: تاريخي، وجغرافي، وكل قسم سبعة مجلدات ومنذ ذلك الحين أصبح التشويه المتعمد لتاريخ شبه الجزيرة العربية سائداً لم يتصد له أحد، ونقل المؤرخين عن لوريمر، دون روية وتبصر وتفكير، كل ما ساقه من أخبار، وما توصل إليه من فتاغات عن الخليج وأهله.

ولوريمر كان موظفاً مدنياً في حكومة الهند البريطانية قضى معظم حياته الوظيفية في الهند وأن أعداد الدليل الشهير الذي ارتبط اسمه به كان بتكليف من اللورد كيرزون، نائب الملك

مسألة القرصة العربية في الخليج وذلك في كتابه، «أسطورة القرصة العربية في الخليج» الذي صدر بالإنجليزية عام ١٤٠٦ هـ وهو يمثل أطروحته للدكتوراه يقول سمو أمير الشارقة في مقدمة كتابه:

يقول سمو أمير الشارقة في مقدمة كتابه:

«لقد حاول مؤيدو الاستعمار البريطاني ترويج الفكرة بأنه في أواخر القرن الثامن عشر وخلال العقدين الأولين من القرن التاسع عشر، اندفع عرب الخليج بحماس بالغ، خاصة القواسم، في موجة قرصة عارمة ضد التجارة الدولية ليس في الخليج وحده، لكن في البحر الأحمر أيضاً، وفي بحر العرب والمحيط الهندي. «أصحاب هذه الحجة يريدون منا الاعتقاد بأن عرب الخليج قد نالوا الخلاص من تلك الأفعال الشائنة بفضل الجهود الطيبة لشركة الهند الشرقية البريطانية، التي كان تدخلها في الخليج لحفظ القانون والنظام. أما ما نتج عن ذلك من سيطرة بريطانية على الخليج لمدة قرنين من الزمان فقد اعتبروه التزاماً أُلقي على عاتق بريطانيا دون أن تسعى إليه...».

ويوضح الدكتور القاسمي رأيه في نفس المقدمة تنقيداً للحجة البريطانية:

«في رأي أن شركة الهند الشرقية كانت عازمة على زيادة نصيبها في تجاره الخليج بأية وسيلة .. وكانت أبة زيادة في نصيب الشركة لا بد وأن تكون على حساب العرب من أهل

الخليج وهم: العتوب والعمانيون والقواسم ... «وقد أدركت حكومة الشركة في بومباي أن أي تصد لخططاتها في الخليج سوف يأتي من جانب القواسم .. لكنها كانت على دراية جيدة أن سفنها الحربية ليست نداءً لأسطول القواسم القوي...» لذلك كان لا بد من تعبئة دوائر اتخاذ القرار في كل من حكومتَي بومباي والهند بل وفي الأميراتورية نفسها ضد القواسم». وبناء عليه شرع مسئولو الشركة في حملة منظمة لتصوير القواسم وبالأحرى تشويه صورتهم على أنهم قراصنة، وتعمل أعمال النهب التي يقومون بها تهديداً خطيراً لكل الأنشطة البحرية في المحيط الهندي، والمياه المجاورة له .. وصار كل حادث يقع لأية سفينة في المنطقة يعزى بشكل متعمد إلى قراصنة القواسم .. بهذه الوسيلة تم تنفيذ خطة «الكذب الكبرى» .. وأصبح لقب «القواسم» بين عشية وضحاها مرادفاً للفظه «قراصنة» بل وأصبح موطن القواسم يسمى «ساحل القراصنة» بدلاً من الساحل العربي .. وبذلك صارت الحرب على «القرصة» هي نداء المعركة لشركة الهند الشرقية البريطانية وإذا حدث ولم تقع هناك إحداث قرصة فإن الشركة كانت كفيلة بتلفيق وقائع وإصافها ببؤساء «القراصنة» الوهميين .. ولنا أن نستشهد بقول فيليب فرانسيس عضو البرلمان البريطاني في ذلك الحين، في تعليق له في مجلس العموم أثناء مناقشة أمور الشركة في أنه «كلما كان

• أسطورة الفرصة العربية ... أ. عبدالله محمد الحليل •

يتشوا بوجوده ويرجع ذلك كما يقول الدكتور إلى طغيان شهرة أرشيف مكتبة حكومة الهند البريطانية على ما عداه .. وقد اكتشف الدكتور أن إرشيف بومباي هو «أغزر مادة وأكثر اكتمالاً» من وثائق مكتبة حكومة الهند، وبخاصة ما يتعلق منها بوثائق الفترة التي تعني بها هذه الدراسة..

ولنا أن نعرف مدى الجهد العلمي الكبير الذي بذله الدكتور القاسمي إذا علمنا أن وثائق أرشيف بومباي تقع في سبعة آلاف مجلد أقدمها يرجع تاريخه إلى عام ١٦٣٠م وتشمل يوميات شركة الهند الشرقية، التي كان نشاطها التجاري هو المقدمة للاستثمار البريطاني للهند طوال أربعة قرون .. كذلك عثر الدكتور على وثائق عربية ومراسلات عربية بين الزعماء العرب ومسؤولي الشركة في ذلك الحين.

الرئيس العام ومجلس إدارته مبالغين إلى شن الحرب ضد جيرانهم كان من السهل عليهم دائماً تفتيق أية قضية تناسب غرضهم .. وأخيراً تم في عام ١٨٢٠م خلق وضع معين في الخليج لا يختلف عن حرب السويس عام ١٩٥٦م مع فارق وحيد هو أن عملية الخليج أدت إلى تدمير القواسم..

هذا وقد لجأ سمو الأمير الدكتور القاسمي إلى الوثائق البريطانية نفسها في بحثه لرفع هذا الظلم التاريخي الفادح الذي ألصقه المؤرخون بالقواسم. ووجه لوريمر في موسوعته الضخمة «دليل الخليج» وكذلك كل من سار على نفس منواله في البحث والكتابة التحيزية.

كانت أهم المصادر الوثائقية التي اعتمد عليها الدكتور القاسمي في دراسته هي أرشيف بومباي الذي تجاهله الباحثون الأوروبيون، أو لم

إن كتاب سمو أمير الشارقة الدكتور سلطان محمد القاسمي يعد إضافة كبرى للمكتبة العربية، وقراءة جديدة لحقبة هامة من تاريخ الخليج كانت أسلحته فيها العلم والحس الوطني والعمل الدؤوب، فاستطاع من وقاع الوثائق التي أغفلها أصحاب الهوى والغرض من المؤرخين والباحثين أن يحموا الزيف الذي لحق بتاريخ فترة معينة من حياة الخليج العربي.. على هذا الجهد المتميز نحيه ونتمنى أن نرى المزيد من الدراسات التاريخية الأصيلة والجادة .. حقق الله الآمال ...

